

مجد أبو عامر | *Majd Abuamer

يارا نصّار | **Yara Nassar

"احتواء حماس: صعود مقاومة فلسطينية وركودها"

"**Hamass Contained: The Rise and Pacification of Palestinian Resistance**"

عنوان الكتاب في لغته: *Hamass Contained: The Rise and Pacification of Palestinian Resistance*.

عنوان الكتاب: احتواء حماس: صعود مقاومة فلسطينية وركودها.

المؤلف: طارق بقعوني | Tareq Baconi.

الناشر: Stanford University Press.

سنة النشر: 2018.

عدد الصفحات: 368 صفحة.

* باحث، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

Researcher, Arab Center for Research and Policy Studies.

** باحثة، مركز دراسات الخليج، جامعة قطر، والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

Researcher, Gulf Studies Center - Qatar University and Arab Center for Research and Policy Studies.

مقدمة

ذات الطابع الإسلامي دراسةً أكاديميةً موضوعيةً يُعدُّ أمرًا مهمًّا، بالنظر إلى ما شهدته من تصاعدٍ في العقد الأخير، بحيث باتت تحتلُّ مواقع سياسية واجتماعية بعد فترةٍ من التهميش، إضافةً إلى ما يشوبُّ هذه الحركات من سريةٍ، على مستوى التنظيم والإدارة والتمويل، يحافظُ عليها المُنتسبون إليها. وفي المقابل، تجنَّب من هم خارجها الانخراط فيها، أو التعرُّف إليها. وينطلي ذلك على الحالة الفلسطينية التي تتسم بخصوصية يفرضها السياق الاستعماري الإحلالي. ومن هذا المنطلق، تأتي الدراسات، التي من بينها كتاب بقعوني، لتكشف جانبًا من هذا الغموض وتُقدم قراءةً في تجربة مُغايرة.

يُغطِّي الكتاب المعالم الرئيسة التي مرَّت بها حماس، في الفترة 1987-2017، بطريقةٍ سردية، وذلك بمؤقعة حماس في السياق الفلسطيني الأوسع. ولا يدعي المؤلف أن كتابه يُقدم تاريخًا شاملًا للعقود الثلاثة، أو يُراجع السياسات الإسرائيلية تجاه الأراضي الفلسطينية، كما أنه لا يدعي شرح التعقيدات المتشابكة لحماس، مثل العلاقة بين حماس الداخل والخارج، أو بين الأجنحة العسكرية والسياسية للحركة، بل يُحاول شرح الديناميكية بين حماس والسلطة الفلسطينية من جهة، وبين حماس وإسرائيل من جهةٍ أخرى، وفهم ديناميات العزل والتشويه التي تعرَّضت لها حماس منذ نحو عشر سنوات، والتي على إثرها باتت مُعانة نحو مليوني فلسطيني داخل قطاع غزة أمرًا مقبولًا. إضافةً إلى ذلك، يهدف الكتاب إلى تتبع الحرب ضدَّ الاحتلال الإسرائيلي من منظور حماس، وذلك بالابتعاد عن الجدل المشحون، وغير الفعَّال، المرتبط باستخدام مصطلحات مثل الإرهاب والعنف وغيرها، من أجل قراءة حماس بطريقة نقدية تفتقر إليها الكثير من الأدبيات. وفي حين لا يستكشف الكتاب الأسس النظرية لأيديولوجيا الحركة، فإنه يُعالج كيفية تأثير المُعتقدات الدينية في النظرة السياسية لحماس بوصفها حزبًا سياسيًا، وليس دينيًا. مع الإشارة إلى أن حماس تُعرِّف نفسها بأنها حركة إسلامية بموجب ميثاقها وإيمان قيادتها وقاعدة أعضائها. وبذلك، فإن الكتاب يُسلط الضوء على جماعة مهمَّشة رغم مركزيتها في الحركة الوطنية الفلسطينية (ص xi-xii, xx-xxi, xxiii).

ويعتمد الكتاب تحليل الخطاب منهجيًا، استنادًا إلى مجموعة واسعة من الأدبيات المختلفة التي ضمَّت مصادر أرسيفية من آلاف الوثائق العربية التي تحتوي على خطابات شفوية وبصرية ومكتوبة نشرتها حماس، بين عامي 1987 و2017، مثل مجلة فلسطين المسلمة، وصحيفة الرسالة، ومنشورات السفير، فضلًا عن البيانات الصادرة عن حماس، وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، وحركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح"، والفصائل الأخرى، وأجنحتها العسكرية، ومنشورات إخبارية محلية وإقليمية ودولية تتحدَّث عن حماس،

يندرجُ كتاب طارق بقعوني، احتواء حماس: صعود مقاومة فلسطينية وركودها، في فضاء دراسات الحركات الإسلامية والدراسات الفلسطينية التي حاولت فهم ظاهرة حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، بوصفها حركةً تجمع بين الهوية الفلسطينية والإسلامية، والتي اختلفت في مقاربتها؛ فمنها مقاربات عالجتها باعتبارها حركةً اجتماعية⁽¹⁾، أو حركة إسلامية⁽²⁾، وأخرى باعتبارها منظمة إرهابية⁽³⁾. ومن حيث الموضوع، اهتمت بعض الدراسات ببحث علاقات حماس بالقوى الفلسطينية الأخرى⁽⁴⁾، أو علاقاتها الخارجية⁽⁵⁾، في حين ركزت أخرى على البنية الداخلية لحماس⁽⁶⁾، أو نشأة حماس وتحولاتها⁽⁷⁾، أو موقف حماس من الديمقراطية⁽⁸⁾، إضافةً إلى السير الذاتية وشهادات قادة حماس التي توثق تجربة الحركة من منظور الفاعلين⁽⁹⁾. إن دراسة الحركات

1 Michael Irving Jensen, *The Political Ideology of Hamas: A Grassroots Perspective* (London: I.B. Tauris, 2009).

2 Andrea Nusse, *Muslim Palestine: The Ideology of Hamas* (London: Routledge Curzon, 1998).

3 Jeroen Gunning, *Hamas in Politics: Democracy, Religion, Violence* (New York: Columbia University Press, 2008); Mosab Hassan Yousef, *Son of Hamas: A Gripping Account of Terror, Betrayal, Political Intrigue, and Unthinkable Choices* (Illinois: Tyndale Momentum, 2010).

4 عبد الإله بلقزيز، أزمة المشروع الوطني الفلسطيني: من "فتح" إلى "حماس" (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)؛ شاؤول مشعال وأبراهام سيلج، أزمة المشروع الوطني الفلسطيني من فتح إلى حماس، قراءة وتعليق علي بدوان (دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، 2009)؛ سميح حمودة، موقف حماس من الحركات الإسلامية الفلسطينية (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2015)؛ سعود المولى، من فتح إلى حماس: البدايات الإخوانية والنهايات الوطنية (بيروت: دار سائر المشرق للنشر والتوزيع، 2018).

5 سليم محمد الزعنون، سياسة الاتحاد الأوروبي تجاه الحركات الإسلامية في المنطقة العربية: دراسة حالة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) : 2001-2007 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011)؛ خالد محمود وآيات حمدان، "حماس ومصر: المازق ومآلات العلاقة" سياسات عربية، العدد 7 (آذار/ مارس 2014)؛ راند إشنور، التقارب بين حماس وإيران بين الضرورة والخيار (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2014)؛ عبد الحكيم حنيني، منهجية حركة حماس في العلاقات الخارجية: سورية نموذجًا 2000-2015 (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018).

6 Azzam Tamimi, *Hamas: Unwritten Chapters* (London: C. Hurst & amp. Co., 2009).

7 مهيب سليمان أحمد النواقي، حماس من الداخل (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002)؛ عدنان أبو عامر، الحركة الإسلامية في قطاع غزة: بين الدعوة والسياسة (القاهرة: مركز الإعلام العربي، 2006)؛ زكي شهاب، حماس من الداخل: القصة غير المروية عن المقاومين والشهداء والجواسيس (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008)؛ أحمد سعيد نوفل [وآخرون]، حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014)؛ Khaled Hroub, *Hamas: Political Thought and Practice* (Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 2000).

8 عقل صلاح، حركة حماس وممارستها السياسية والديمقراطية: 1992-2012 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2016).

9 إبراهيم غوشة، المثندة الحمراء: سيرة ذاتية (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2008)؛ موسى أبو مرزوق، مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال، ط 2 (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2019).

الوطن الفلسطيني، وذلك بالنظر إلى أن الخطط الصهيونية، وتوسيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، من أكبر تهديدات العالم الإسلامي (ص 8-4، 11). إلا أن ريتشارد ميتشل يُشير إلى أن "علاقة الجماعة بفلسطين بدأت منذ عام 1935 عندما زار عبد الرحمن البنا، شقيق حسن البنا، فلسطين والتقى بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى في ذلك الوقت"⁽¹⁰⁾.

ويُجادل المؤلف بأنّ الخلاف المُبكر بين الإخوان المسلمين والأعضاء الإسلاميين في الحركة الوطنية الفلسطينية يعود إلى لحظة تأسيس حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، عام 1959، من جانب ياسر عرفات (1929-2004) - الذي عبّر كعضو غير رسمي في معسكرات الإخوان المسلمين - ورفاقه، لاعتقاد الجماعة أنّ غياب الأجندة الإسلامية مقابل "العلمانية" سيمنع تحقيق الأهداف القومية للقضية الفلسطينية (ص 13). واستمرّ هذا الخلاف لتستغله إسرائيل فيما بعد، حيث وافقت سلطات الاحتلال الإسرائيلية على طلب ترخيص الجمعية الإسلامية الذي تقدّم به ياسين عام 1976، لطموحها إلى إنتاج قوة مضادة تُضعف الحركات القومية الفلسطينية الأخرى، من خلال "زراعة" الإخوان في قطاع غزة ومو الحركات الإسلامية عمومًا. وفي المقابل، اعتبرت قيادة الإخوان هذا التفاهم الضمني مع إسرائيل، وسيلةً لتوسيع نطاقها ومواجهة التأثير العلماني للفصائل القومية. وقد أدى هذا التنافس بين الإسلاميين والقوميين إلى نزاعات دموية وعنيفة، على مرأى من قوات الاحتلال الإسرائيلية التي تقاعست عمدًا عن إنهاء هذه المواجهات لتمكين نمو الإخوان (ص 17).

وخلالاً للقوميين الذين استجابوا لنداء الكفاح المسلح لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعلى النقيض من تجربة حركة الجهاد الإسلامي التي رفضت التعامل مع إسرائيل، وركّزت مثل منظمة التحرير على مواجهة الاحتلال بدلاً من بناء المؤسسات الإسلامية، لإيمانها أن تحرير فلسطين هو الطريق نحو إحياء الأمة الإسلامية، وأنّ التفاني الأعمى للأسلمة يُضعف النضال الفلسطيني، حافظ الإخوان المسلمون على ارتباطهم البراغماتي بإسرائيل، ليعطي ياسين ورفاقه الأولوية للأسلمة على حساب المقاومة الفورية للاحتلال، حيث ركّزوا على توسيع بنيتهم التحتية الاجتماعية والخيرية والتعليم والإحياء الديني داخل الأراضي المحتلّة؛ ما أدى إلى استياء كبير بالنسبة إلى القوميين وأعضاء قاعدتهم أيضًا، الأمر الذي دفع الإخوان المسلمين إلى تسريع انخراطهم في مقاومة الاحتلال، لبيدًا الشيخ ياسين ورفاقه بتخزين الأسلحة سرًّا في منزله بغزة، ولتستحدث الجماعة في أواخر عام 1985

وتتضمّن تصريحات أدلى بها أعضاء حماس، والمنشورات الإلكترونية للحركة. إضافةً إلى ذلك، أجرى المؤلف مقابلات مع أعضاء حماس في لبنان والأردن وقطر والضفة الغربية وقطاع غزة، ومع سياسيين ومحللين وأكاديميين وناشطين إسرائيليين وفلسطينيين، إلى جانب اعتماده على أدبيات ثانوية باللغتين العربية والإنكليزية، واستفادته من زيارات ميدانية قام بها متعلقة بأرشيف "مجموعة الوثائق العربية" لمعهد الدراسات الفلسطينية، وأرشيف "الوثائق الفلسطينية" (خلال الأعوام 2005-2011) لمركز الزيتونة في بيروت، إضافةً إلى زيارته لقطاع غزة عام 2015، وإطلاعه على أرشيف صحيفة الرسالة. وقد أراد المؤلف هذا التنوع في مصادر كتابه مراعاةً للتباينات الدقيقة داخل الحركة، فهو يعتقد أنّ حماس ليست كلاً واحداً، بل هي حركة مُنظمة مُعقدة ولا مركزية وذات أوجه مختلفة، تعمل على موازنة توتراتها الداخلية باستمرار (ص xx-xxiii).

يقع الكتاب في ستة فصول وصفية/ سردية، وخاتمة تحليلية. وفي الفصل الأول، يتتبّع المؤلف تطوّر نشاط الحركة الإسلامية في فلسطين، منذ إنشاء فرع لجماعة الإخوان المسلمين عام 1945 حتى الانطلاق الرسمي لحماس عام 1988. أما الفصل الثاني، فيعالج العلاقة المضطربة بين حماس والسلطة الوطنية الفلسطينية منذ اتفاق أوسلو حتى وصمها بالإرهاب. وفي الفصلين الثالث والرابع، يبحث المؤلف، تحوّل حماس تجاه العمل السياسي من خلال انخراطها في الانتخابات المحلية التشريعية، وتدابير سيطرتها على قطاع غزة. وينتقل في الفصل الخامس إلى معالجة الكيفية التي أدّى من خلالها حكم حماس الإداري في قطاع غزة إلى مأسسة الانقسام الفلسطيني - الفلسطيني. أما الفصل السادس، فهو يبحث أثر الاضطرابات العربية منذ عام 2011 في سلوك حماس السياسي. وفي الخاتمة، يُراجع المؤلف - نقدياً - تحوّل حماس المفصلية، مُقيماً أخطاءها، حيث يخرج عن النهج السردى المعتمد في بقية الكتاب لإجراء تدخلات تحليلية حول حماس والمرحلة الحالية من القومية الفلسطينية.

أسلمة القومية الفلسطينية:

الانتفاضة الأولى وصعود "حماس"

بحسب المؤلف، بدأت العلاقة بين الإخوان المسلمين وفلسطين مع افتتاح جماعة الإخوان المسلمين أول فرع رسمي لها في القدس عام 1945، ليصبح لديها نحو خمسة وعشرين فرعاً داخل فلسطين بحلول عام 1948. وقد أسست الجماعة - التي انضم إليها الشيخ أحمد ياسين (1936-2004) منذ تأسيسها - معسكرات تدريب عسكرية في قطاع غزة لدعم المهام المسلّحة التي تهدف إلى تحرير

10 زياد أبو عمرو، أصول الحركات السياسية في قطاع غزة: 1948-1967 (عكا: دار الأشوار، 1987)، ص 63.

فلسطين، فإنه أظهر فلسفة حماس بوصفها حزباً إسلامياً وطنياً. ومن خلال تعريف القومية بأنها "جزء لا يتجزأ من أيديولوجيتها الدينية"، أظهر قادة حماس أن الإسلام هو أساس أيديولوجيتها السياسية⁽¹²⁾. ولم يقدم الميثاق أي إشارة إلى طبيعة الدولة أو الكيان الإسلامي الفلسطيني الذي تسعى إليه، إلا أنه تحدث عن السلام مع المسيحيين واليهود في ظل الحكم الإسلامي، رغم تضمّن الميثاق إشارات معادية للسامية بُنيت على بروتوكولات حكماء صهيون⁽¹³⁾، والصور النمطية القديمة عن الشعب اليهودي. ومن خلال ميثاقها، عبّرت حماس عن رفضها الاعتراف بدولة إسرائيل، وشددت على عدم قابلية تجزئة أرض "فلسطين التاريخية" (ص 21-23).

ويرى المؤلف أنّ العلاقة بين حماس وإسرائيل تحوّلت إلى مواجهة - بعد أن كانت إسرائيل تعتبر حماس مؤسسة اجتماعية غير سياسية - عندما عبّرت حماس نفسها بأنها حركة مقاومة، لتُصنّفها إسرائيل منظمة إرهابية في أوائل عام 1989 عندما أسرت جنديين إسرائيليين وقتلتهم، ثمّ إنّ إسرائيل اعتقلت ثلاثين من أعضائها، بمن فيهم الشيخ ياسين، وأعلنت أن التعامل مع حماس جريمة يُعاقب عليها. وقد دفع هذا الأمر حماس إلى نقل صنع القرار إلى الخارج، حيث أنشأت فروعاً تشريعية وتنفيذية، مع الحفاظ على قيادة سرية داخل الأراضي المحتلة، ليكون ذلك بمنزلة إضفاء الطابع المؤسسي الرسمي على ما سيعرف فيما بعد بالقيادة "الداخلية" و"الخارجية" لحماس. وإلى جانب ذلك، أضفت حماس الطابع المؤسسي على وحداتها العسكرية بتوحيدها تحت جناح مسلح بقيادة صلاح شحادة، عام 1991، تحت اسم "كتائب عز الدين القسام"، تكريماً للشخص الذي اعتبرته سلفها، ولتبدأ بعد ذلك - على غرار منظمة التحرير الفلسطينية - حملة عسكرية تستهدف مواقع الجيش الإسرائيلي وتجمعات المستوطنين. ثمّ إنّ إسحاق رابين اعتقل 413 عضواً من أعضاء حماس والجهاد الإسلامي، في كانون الأول/ ديسمبر 1992، وجرى ترحيلهم إلى منطقة مرج الزهور في جنوب لبنان، ليلتقي قادة حماس المعزولين تحت الاحتلال مع نظرائهم في القيادة الخارجية، وليبدؤوا قنوات اتصال مع منظمات أخرى، مثل حزب الله وإيران، بشكل غير مباشر. وبحلول التسعينيات، تحوّلت حماس إلى لاعب

عدّة أجهزة، منها مقاتلو الجهاد الفلسطيني، وهي منظمة عسكرية تركز على استهداف الجنود الإسرائيليين والمستوطنين اليهود في قطاع غزة (ترأسها صلاح شحادة)، ومنظمة الجهاد والتبشير التي تعاملت مع الفلسطينيين المتعاونين مع الاحتلال (ص 17-20).

بسبب حادث سير في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1987، بين عربة تابعة للجيش الإسرائيلي وسيارات تقلّ عمال المياومة الفلسطينيين من عملهم في إسرائيل إلى منازلهم في قطاع غزة، أسفر عن مقتل أربعة فلسطينيين (ثلاثة منهم من مخيم جباليا للاجئين)، اندلعت أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأولى من مخيم جباليا لتشملّ كل الأراضي الفلسطينية. وفي حين كان الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات يسعى من منفاه في تونس إلى توجيه منظمة التحرير الفلسطينية لتولي دور قيادي لأحداث الانتفاضة للاستفادة من هذه الهبة الجماهيرية وضمان بقائها سلمية، اجتمع الشيخ ياسين ورفاقه لبحثوا كيفية الاستفادة من هذه المشاعر الشعبية، ثمّ إنهم عمّموا منشوراً في 14 كانون الأول/ ديسمبر - لم يحمل اسم "حماس" - يشيد بالانتفاضة ويرفع شعار "الإسلام هو الحل والبدل"، مُستكرين بذلك فشل منظمة التحرير الفلسطينية في إنهاء الاحتلال (ص 1-3). وقد نافست حماس القيادة المحلية التي تعمل بالتنسيق مع منظمة التحرير الفلسطينية، بل إنها اقترحت تواريخ إضراب بديلة من تلك التي أعلنتها، واستخدمت في منشوراتها لغةً مختلفة توظّف عنصرًا دينياً، ونشرت رسوماتها التي تهاجم اليهود والمسيحيين والقوميين العلمانيين، الأمر الذي أدى إلى اتهامها بتقويض الوحدة من جانب منظمة التحرير الفلسطينية (ص 25).

وبعد بضعة أسابيع من اندلاع الانتفاضة، أسس ياسين ورفاقه حركة المقاومة الإسلامية "حماس" رسمياً في كانون الثاني/ يناير 1988، استناداً إلى بناء مؤسسي متين طُوّر على مدى عقود داخل قطاع غزة، عن طريق نجاح المؤسسات الاجتماعية والخيرية للجمعية الإسلامية (ص 3-4)، لتتنقل حماس وممارساتها بالتدريب من حركة ذات طابع دعوي ديني على النمط الإخواني الكلاسيكي إلى حركة وطنية جهادية من نوعٍ جديد⁽¹¹⁾.

وفي آب/ أغسطس 1988، أصدرت حماس ميثاقها ليحدد مهمتها وقيمها وأهدافها تحت عنوان "ميثاق الله: منهج حركة المقاومة الإسلامية (حماس)"، وليكون شعارها: "الله غايتنا، الرسول قدوتنا، القرآن دستورنا الجهاد سبيلنا، الموت في سبيل الله أسمى أمانينا". ومع أنّ الميثاق يُعرّف حماس بأنها جناح لفرع الإخوان المسلمين في

12 لم تُبلور حماس منهجاً أو فكرًا نظرياً سياسياً واضحاً منذ نشأتها، بل استندت في بلورتها لقواعدها النظرية العامة وفكرها السياسي إلى أدبيات جماعة الإخوان المسلمين باعتبارها امتداداً لها. يُنظر: سمح حمّودة، "موقف حماس من الحركات الإسلامية الفلسطينية"، في: محمد محسن صالح (محرر)، حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014)، ص 178.

13 "بروتوكولات حكماء صهيون": هي وثيقة ظهرت على يد الكاتب الروسي سيرغي نيلوس (1862-1929) عام 1905 في روسيا القيصرية، وتتضمن 24 بروتوكولاً تدعي وجود خطة لليهود للسيطرة على العالم.

11 سعود المولى، "المقاومة الإسلامية في فلسطين: التباسات البدايات، واقعية المسارات"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 95 (صيف 2013)، ص 56.

واصلت تركيزها على السلطة الفلسطينية بدلاً منها، ووضعت خططاً لتدمير مؤسساتها ونزع سلاح الحكومة الإدارية وقواتها الأمنية (ص 36-47).

مُستغلةً مناخ هجمات 11 سبتمبر 2001، أظهرت إسرائيل الانتفاضة الثانية على أنها "حرب إسرائيل على الإرهاب". ومع ذلك، رفضت حماس خطة الإصلاح التي قدمها الرئيس الأميركي جورج بوش في حزيران/ يونيو 2002، رغم تهدة نشاطها العسكري، وهو ما أشار إلى استعدادها لتعليق كفاحها المسلح أثناء الانخراط في مفاوضات داخلية مع السلطة الوطنية الفلسطينية. إلا أن حركة حماس استأنفت عملياتها الانتحارية في خريف عام 2002، بعد اغتيال قائدها شحادة، وأدانت وصف رئيس وزراء السلطة الوطنية الفلسطينية محمود عباس للمقاومة الفلسطينية بـ "الإرهاب"، عام 2003، بوصفه نزاعاً لشرعيتها. وفي المقابل، صرحت بأنها لن تخرج عباس إذا تمكن من الحصول على وعد من شارون بإنهاء الاغتيالات والغارات ضدّها (ص 47-48، 54-59).

وبعد جدالٍ دار داخل أروقة الحركة، قرّرت حماس المشاركة في الانتخابات المقرر إجراؤها في تموز/ يوليو 2005، مستفيدةً من أدائها القوي في الانتخابات البلدية، إلا أن عباس قرّر تأجيلها، خلافاً لاتفاق القاهرة، بضغطٍ دولي وموافقة أميركية، لكبح طموحات حماس السياسية، وإعطاء حركة فتح المزيد من الوقت للاستعداد. ورغم تأجيل الانتخابات إلى كانون الثاني/ يناير 2006، فإن حركة حماس استفادت من كونها حزب معارضة، ومن إحباط الشارع الفلسطيني تجاه فتح وزعيمها، وفازت وفق برنامجها الانتخابي "التغيير والإصلاح" في الانتخابات - التي بلغت نسبة المشاركة فيها 77 في المئة، والتي اعتبرها المراقبون الأجانب نموذجاً للديمقراطية في المنطقة - بغالبية المقاعد (76 مقعداً من أصل 132 مقعداً)، مقابل 43 مقعداً لحركة فتح (ص 83-96).

ورغم ادعاء إدارة بوش حرصها على تعزيز الديمقراطية، فإنها تبنت استراتيجيةً مزدوجة لعزل حماس وتأكيد هيمنة حركة فتح عسكرياً ومالياً ودبلوماسياً، وبدأت برنامجاً سريعاً لدعم فتح وتسليحها. وعليه، فرض حصار ماليٌّ على حكومة حماس. كما لُوحت اللجنة الرباعية الدولية باحتمالية تراجع المانحين عن تقديم المساعدات إلى أي حكومة في حال عدم التزامها بمبادئ الأئنف والاعتراف بإسرائيل والاتفاقات المبرمة سابقاً بما فيها "خارطة الطريق". ومن جهتهما، أطلقت الولايات المتحدة وإسرائيل استراتيجية الجدار الحديدي (بحسب وصف حماس) لخنق حكومة حماس، وإجبارها على قبول شروط اللجنة أو دفع عباس إلى الدعوة لانتخاباتٍ جديدة. في حين

قوي في المنطقة، ليتحول التنافس بين الحركات الإسلامية والقومية التي تعود إلى السبعينيات والثمانينيات إلى نزاع حول هوية ومسار القومية الفلسطينية في المستقبل. ويُشار في ذلك إلى أن حماس استفادت من قرارها في إدانة غزو صدام حسين للكويت عام 1990، خلافاً لمنظمة التحرير الفلسطينية التي انحازت إلى صدام حسين⁽¹⁴⁾. ورغم أن موقفها لم يكن محبوباً على المستوى المحلي، فإنه حسن وضعها مع دول الخليج التي أعادت توجيه أموالها نحوها، وأغرقت منظمة التحرير في أزمة مالية (ص 26-28).

مُعارضة "أوسلو" مع الانخراط في مؤسساتها: "حماس" من المقاومة إلى السياسة

عارضت حماس مفاوضات "عملية السلام" التي انطلقت بعد توقيع اتفاق إعلان المبادئ "أوسلو" في أيلول/ سبتمبر 1993، ورفضت المشاركة في أولى انتخابات رئاسية وتشريعية فلسطينية عام 1996، لتجنب إضفاء الشرعية على اتفاقيات أوسلو، واستمرت في عملياتها الانتحارية/ الاستشهادية لإخراج عملية السلام عن مسارها. وفي المقابل، استمرت السلطة الوطنية الفلسطينية حملتها القمعية على حماس، بالتعاون مع إسرائيل ضمن آليات التنسيق الأمني، إضافةً إلى إعلان الأردن عن عدم قانونية وجود حماس في البلاد، بضغطٍ من إسرائيل، والولايات المتحدة التي صنفتها منظمة إرهابية عام 1997؛ ما ألحق أضراراً بالغة بالحركة (ص 27، 29-34).

ومع اندلاع الانتفاضة الثانية عام 2000، أشادت حماس بما أسمته "التدخل الإلهي" الذي أخرج العملية الدبلوماسية عن مسارها. ورغم خطابها الحماسي، فإنّ عسكريّة حماس - كما في الانتفاضة الأولى - تخلّفت عن ركب الفصائل الفلسطينية الأخرى، لاعتقادها أن عرفات يستغل الانتفاضة من أجل موقف تفاوضي أفضل مع إسرائيل. وقبّلت حماس فكرة الدولة الفلسطينية على حدود 1967، كما فعلت منظمة التحرير الفلسطينية من قبل، من خلال إشارتها إلى أن عملياتها العسكرية - من عمليات استشهادية وإطلاق الصواريخ من غزة - تقتصر على هدف تحرير الأراضي المحتلة، وأنها ليست من أجل تدمير إسرائيل. ورغم وضوح عسكريّة حماس، فإنّ إسرائيل

14 انقسم موقف قادة منظمة التحرير الفلسطينية بين مؤيد ومعارض للغزو، لكن زيارة رئيس المنظمة ياسر عرفات للعراق بعد يومين من الأزمة، وتصويت المنظمة ضدّ قرار القمة العربية في شجب الغزو، أدت إلى توتر العلاقة الفلسطينية - الكويتية. وكذلك فعل إعلان صدام (12 آب/ أغسطس 1990)؛ ربطه لانسحاب من الكويت، بانسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة. يُنظر: شفيق الغبرا، النكبة ونشوء الشتات الفلسطيني في الكويت (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 248-254.

تدويل الدعم الذي يصل إلى القطاع من خلال سيطرتها على الحدود، إلا أن حماس تمكّنت من تخفيف الحصار عن طريق اقتصاد الأنفاق (ص 135-136، 140، 153).

وبصرف النظر عن طبيعتها الإسلامية، يُرجع المؤلف قوّة حماس الأيديولوجية إلى عاملين: أولاً، امتلاكها ما تراه انتصاراً مُدوياً يُبرّر الكفاح المُسلّح ويثبت جدواه، وفي هذا السياق نشير إلى انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان (عام 2000) ومن قطاع غزة (عام 2005). ثانياً، الفشل السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية في إقامة دولة فلسطينية ونبذها الكفاح المُسلّح، إضافةً إلى تعنّت حماس الأيديولوجي، فهي لم تتنازل عن أيّ مبدأ من مبادئها الأيديولوجية الأساسية مثلما فعلت منظمة التحرير، خصوصاً برفضها الاعتراف بإسرائيل، ذلك أنها تُفسّر قبولها بحدود 1967 بأنه تكتيك تفاوضي؛ كون إسرائيل نفسها ترفض الاعتراف بشرعية هذه الحدود، كما أنها قدمت عروضاً متكررة لإنهاء عنفها مُقابل المعاملة بالمثل من جانب إسرائيل، إلا أن إسرائيل تجاهلت باستمرار هذه العروض (ص 228-231).

هدفت إسرائيل من خلال عملية "الرصاص المصبوب" (2008-2009) إلى إجبار حماس على التهدئة وإضعافها من دون إعادة احتلال القطاع بشكلٍ مباشر وتحمل مسؤولية سكّانه. وبالفعل، بدأ سكّان القطاع يستأوون من حماس، حيث أتت استطلاعات الرأي بتأييدٍ لفتح بنسبة 35 في المئة مُقابل 19 في المئة لحماس، وذلك بسبب ما لحق بهم من بؤس خلال حكمها، وقمعها للفصائل المنافسة، وتقويضها للمجتمع المدني وزيادة القيود على المنظمات غير الحكومية، واستغلالها لبيئة الحرب (حروب الأعوام: 2008، و2012، و2014) والفوضى لتسوية حساباتها السياسية، وتنفيذ عمليات اغتيال خارج نطاق القضاء لأعدائها المحليين، بمن فيهم أعضاء فتح المُحتجزين في سجونها (ص 156-163، 217). وهذا لا ينفي وقوع الكثير من سياسات حماس في صميم الاهتمامات الشعبية؛ فخلال عملية "الجرف الصامد" مثلاً، وصل الدعم لحماس إلى نحو 40 في المئة، وتأييد مفهوم "المقاومة" إلى أكثر من 90 في المئة (ص 227-228).

لقد فشلت استراتيجيتنا القوّة في قطاع غزة والدبلوماسية في الضفة الغربية في الحصول على أيّ تنازلاتٍ سياسية من إسرائيل، بل أدّت إلى تفاقم الانقسام الداخلي؛ ما مأسس الانقسام الفلسطيني الذي استفادت منه إسرائيل بذكاءٍ وفاعلية، بحيث واصلت مسارات التفاوض المباشرة وغير المباشرة مع كلا الطرفين بشكلٍ مُنفصل، مع عرقلة أيّ وحدة بينهما (ص 169-170). وقد أبرمت العديد من الاتفاقيات بين فتح وحماس لإنهاء الانقسام؛ منها "اتفاق الدوحة"

لم تصنف روسيا (عضو اللجنة الرباعية) حماس مُنظمةً إرهابية، كما يشير المؤلف إلى استعداد إيران لدعم حماس ماليًا (ص 97-100)، الأمر الذي يوضّح - بحسب العربي صديقي - أن نشر الديمقراطية بالطريقة الأميركية يُنتج الثفرد بدلاً من التعددية. وفضلاً عن ذلك، يتضح أن الولايات المتحدة عندما تعتمد الاستقطاب فإنها تلجأ إلى سياسية الترهيب (لا الحوافز). فحملة إرهاب حماس تُشبه حملة إدارة ريغان في إرهاب الساندينينيين بنيكاراغوا في الثمانينيات⁽¹⁵⁾.

يرى المؤلف أن حكومة حماس التي ضمت كبار أعضاء المكتب السياسي لحماس كحركة، مثل محمود الزهّار وإسماعيل هنية، حاولت الخروج من فخّ الحكم الذاتي وإضفاء الطابع المؤسسي على مفهوم "المقاومة" في فلسفة النظام الفلسطيني، ذلك أنها طمحت إلى استبدال قوّة الأمن بجيش مُقاومة، وتعزيز الاقتصاد الوطني، ومعالجة الفساد، وبناء نظام قانوني مُستقل، إلا أن هذا الطموح اصطدم بالصور الداخلي والتهميش الدولي (ص 103-106). ورغم تفاقم التوتّرات بين حكومة حماس ومكتب عباس بسبب جهود حماس لتسليح نفسها في ربيع عام 2006، فإنها قدّمت تنازلات كبيرة في اتفاق مكة (عام 2007) لإيجاد أرضية مُشتركة مع عباس، وتحقيق مطالب المجتمع الدولي؛ من أجل رفع الحصار وتهدئة المخاوف الدولية، إلا أن الاشتباكات بين مسلّحي فتح وحماس عادت بعد اتفاق مكة بأسابيع لتنتهي بسيطرة حماس الكاملة على قطاع غزة في 14 يونيو/ حزيران 2007 (ص 110، 126-128، 133).

سيطرة حماس على غزة:

مأسسة الانقسام

الفلسطيني - الفلسطيني

بعد سيطرة حماس، فرض الحصار على قطاع غزة لدفع سكّانها، بسبب المعاناة، إلى الثورة ضدّ سلطة حماس وإطاحتها، حيث عزّل القطاع عسكرياً ودبلوماسياً واقتصادياً، وتحوّل إلى سجنٍ جماعي لنحو مليوني نسمة. وبذلك، تحوّلت حكومة حماس إلى سلطة إدارية بحكم الواقع De Facto تعمل تحت إشراف الحركة، التي خلقت بيئة داعمة للنضال المُسلّح ضدّ إسرائيل، ليزداد إطلاق الصواريخ تجاه إسرائيل، من جانب حركة الجهاد الإسلامي غالباً، وتتصاعد الغارات الجوية والتوغلات البرية الإسرائيلية في غزة في المقابل، لتُعلن إسرائيل بحلول أيلول/ سبتمبر 2007 أن غزة "منطقة مُعادية"، وتعمل على

15 العربي صديقي، إعادة التفكير في الديمقراطية العربية: انتخابات بدون ديمقراطية، ترجمة محمد شيا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)، ص 262-269.

سياسية، وسهّل تجريد المعارضين من إنسانيتهم. لقد ساهمت حماس - وفتح بالتأكيد - بشكلٍ فعّالٍ في تقسيم نضال التحرير الوطني إلى مسارين مُتنافسين، وفي تحويل العلاقات الداخلية إلى معاركٍ ضاريةٍ لأمتناهيّة. وبطبيعة الحال، عرقلت كلّ من السُلطة الفلسطينية وإسرائيل الجهود المبذولة للتخلّي عن مسؤوليات الحُكم والعودة إلى حركة التحرير (ص 240-245).

احتواء حماس: محاولة فهم تعقيدات حركة إسلامية تحت الحصار

يُرجع المؤلف بقاء حماس إلى ما يصفه باحتواء حماس، حيث عملت إسرائيل منذ عام 2007 على احتواء حماس في قطاع غزة وتحويلها إلى سُلطة إدارية شبيهة بالسلطة الفلسطينية في الضفة الغربية من خلال "إدارة المقاومة"، وذلك عن طريق سياسة "جز العُشب" التي تعتمد على الاستخدام المُتقطع للقوّة العسكرية؛ تقويضاً لأيّ نموّ لفصائل المقاومة في غزة. فإسرائيل تحتاج إلى حماس ضعيفة بما يكفي حتى لا تُهاجم إسرائيل من جهة، ومُستقرّة بما يكفي للتعامل مع الجماعات الإرهابية المُتطرّفة في غزة من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى انخراط كلّ من إسرائيل وحماس في عملية الحفاظ على التوازن، بحيث تعتمد حماس على إطلاق الصواريخ لإزعاج إسرائيل، في حين تستخدم إسرائيل القوّة العسكرية لإضعاف حماس (ص 232-233).

وبعد أن فشلت حماس في تحمّل مسؤولياتها الحكومية، وبعد أن أصبح التمسك بمشروع التحرير مُرهقاً، اتخذت إجراءاتها الخاصّة، خلال عامي 2015 و2016، لتعزيز إيراداتها من خلال زيادة الضرائب المحليّة، وإحياء الجهود الدبلوماسية للحفاظ على العلاقات الإقليميّة. وبات التأييد الشعبي لحماس يتشكّل من خلال نوعية إدارتها لقطاع غزة، وليس من خلال التزامها بالمقاومة. صحيح أنّ اتهامات فتح لحماس بخضوعها خلف الأبواب المُغلقة مُبالغ فيها للمصلحة الذاتية، إلا أنها تنطوي على جانب من الحقيقة. ففي كلّ مُحادثات وقف إطلاق النار الموقّعة مع إسرائيل بين عامي 2009 و2012، وافقت حماس على مساعٍ قصيرة المدى لكبح جماح المقاومة مُقابل الاستقرار والوعد بتخفيف الحصار في المُستقبل (ص 233-234).

وأصدرت حماس "وثيقة سياسية" جديدة في أيار/ مايو 2017، لتُعبّر عن تحولات الحركة خلال عقدٍ من حكمها لغزة. فقد وافقت فيها على إنشاء دولة فلسطينية على حدود عام 1967، وقرار الأمم المتحدة رقم 194 الخاص بحق العودة، وتقييد الكفاح المسلح للعمل في حدود القانون الدولي، وفصل ارتباط حماس بمنظمتها الأم الإخوان المسلمين، موضحةً التزامها بالقومية الفلسطينية (ص 245).

(عام 2012) الذي أظهرت فيه حماس مرونةً كبيرةً في تقديم التنازلات، حيث وافقت على تأجيل الإفراج عن السجناء السياسيين لدى السلطة الفلسطينية إلى ما بعد المُصالحة، كما سمحت حماس لعباس برئاسة الحكومة، إضافةً إلى تأكيدها على دور المُقاومة الشعبيّة غير المُسلّحة في النضال ضدّ الاحتلال، ومنها كذلك "اتفاق الشاطئ" (عام 2014) الذي تنازلت فيه حماس عن جميع المناصب الوزارية، ووافقت على إشراف السُلطة الفلسطينية على حُدود رفح، مع تأكيدها على عدم نزع سلاحها. لكن حكومة الوحدة الوطنية التي شكّلت ظلّت رمزيّة، فقد حافظت حماس على سيطرتها القويّة على القطاع من خلال كتائب عز الدين القسام، وتطويرها لهيكل حُكم في غزة مُنفصل عن المؤسّسات الإدارية والوزارية للحكومة؛ ما أتاح لإسرائيل فرصةً لإضفاء الطابع الرسمي على الوسائل المُختلفة لفصل غزة عن بقية فلسطين، بتقديم حماس على أنها منظمة إرهابية من المُبرّر تهميشها ومحاصرة مليونيّ فلسطيني، وبتصوير عمليات الجيش الإسرائيلي ضدّ غزة على أنّها شكل مشروع للدفاع عن النفس. وفي ذلك، يرى المؤلف أنّه من الدقّة أن يُقال إنّ حماس أصبحت مُهمّشة بسبب غزة، بدلاً من تهميش غزة بسبب حماس، وإنّ حماس لا تُمثّل مُشكلة لإسرائيل، بل مشكلتها هي فلسطين (ص 188، 209، 223، 225-227).

يُجادل المؤلف بأنّ حماس تتحمّل درجة كبيرة من المسؤولية عن حالة التجزئة داخل الأراضي الفلسطينية. ففي ظلّ ترسُّخها في قطاع غزة وسيطرتها الاستبدادية المُتزايدة على الحكومة، اتخذت حماس قرارات مُدمرة في المجالين السياسي والعسكري المُتشابكين. سياسياً، بدأ الضرر مع قرار الحركة خوض الانتخابات التشريعية، فهي سعت للانضمام إلى المؤسّسات نفسها التي رفضتها، مُعتبرةً انتصارها الديمقراطي تقويضاً لتفكيك وإعادة تجميع هياكل "الدولة" بأكملها، لتفشل في فهم مبادئ الحُكم الديمقراطي؛ فهي تبنّت الديمقراطية ليس من أجل تشكيل حكومة، بل من أجل قيادة النضال الفلسطيني. ولا علاقة لهذا الفشل بالتعارض بين الإسلام والديمقراطية، بقدر ما يتعلّق بحُدود السيادة والعلاقات بين بناء الدولة والثورة. فقد افتترضت الحركة خطأً أنّ الثورة يُمكن أن تنطلق من داخل الأنظمة التي أنشئت من أجل تدجين النضال الوطني، كما أدى العُنف الذي أطلقته حماس ضدّ الفلسطينيين الآخرين إلى تعريض النضال الفلسطيني للخطر. إضافةً إلى ذلك، أعطت حماس بقاءها أولويّةً على حساب المُصالحة وتحقيق الوحدة، مبررةً ذلك بحماية الفلسطينيين من مزيدٍ من تنازلات مُنظمة التحرير الفلسطينية. أمّا عسكرياً، فقد فشلت حماس استراتيجياً في تحقيق غايات الجهاد، وأدى اعتمادها على العُنف إلى تهديد النسيج الاجتماعي للمُجتمع الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال، حيث استُخدم العُنف كتكتيكٍ لتحقيق غايات

الضغط على إسرائيل، بما يتجاوز استخدام التكتيكات العسكرية التقليدية مثل إطلاق الصواريخ. كما يُظهر وقف إطلاق النار المتقطع الذي أعقب ذلك بين حماس وإسرائيل منذ عام 2018، رغبة حماس في كبح جماح نشاطاتها العسكرية مقابل التزام إسرائيل بتخفيف الحصار والقيود المفروضة على غزة، الأمر الذي أبدى الفلسطينيون في غزة اعتراضاً عليه، إلى جانب فصائل أخرى، على اعتباره تقييداً لنشاطات المقاومة وأهدافها السياسية المتمثلة بالتحريك. وتكمن بعض الحقيقة في ذلك، فالقوة العسكرية التي تستخدمها إسرائيل ضد الفلسطينيين تبتت جميع أشكال المقاومة الفلسطينية بنجاح، وحصرت كلاً من حركة حماس والسلطة الفلسطينية في أدوار السلطات الحاكمة في المناطق الفلسطينية الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية. وغالباً ما تُبدي حماس، على المدى القصير على الأقل، مسؤولياتها في الحكم على المقاومة العسكرية. وعملت حكومة حماس، بوصفها كياناً حاكماً يعمل في ظروف استثنائية، بشكل جيد نسبياً في بعض المجالات، مثل التعامل مع أزمة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، بينما تصرفت بطريقة سلطوية في مجالات أخرى، بما في ذلك قمع حرية التعبير وقمع أشكال الاحتجاج الشعبي، جعلت الحياة في غزة أكثر صعوبة. أما على الصعيد الإقليمي، فتسير الحركة، كما هو الحال بالنسبة إلى السلطة الفلسطينية، على خطٍ رفيع، كونها تدير تحالفات إقليمية سريعة التحول، ليس أقلها مع دول مثل مصر والمملكة العربية السعودية، والتي تعمل على توسيع تحالفاتها الأمنية مع إسرائيل وتؤيد الثورات الإقليمية المضادة، ومع دول أخرى فاعلة مثل إيران وتركيا وقطر، والتي تقدّم الدعم الجيوسياسي والمالي لحماس⁽¹⁷⁾.

خاتمة

يُقدّم المؤلف في كتابه تأريخاً نقدياً لحماس بوصفها جماعة مركزية ومهمّشة في الحركة الوطنية الفلسطينية مُعتمداً على منهج تحليل الخطاب لسرد سيرة الحركة كما وردت في خطاباتها ووثائقها، ويرصد - كرونولوجياً - التحولات الرئيسية التي مرّت بها الحركة، ليعود في ذلك إلى امتدادها التاريخي بإنشاء أول فرع للجماعة الأم (الإخوان المسلمون) في فلسطين عام 1945، ومن ثمّ إلى بدايات تبلورها مع تأسيس الجمعية الإسلامية عام 1976 من جانب مؤسس الحركة الشيخ أحمد ياسين، ثمّ نشأتها عام 1987، وصولاً إلى سيطرتها على غزة، ومن ثمّ حصارها وخنقها، وصولاً إلى احتوائها من خلال مُعادلة "التوازن الضمني"، بحسب وصف المؤلف، بين حماس وإسرائيل. ومع أنّ الكتاب يروي حكاية حماس، فإنّه يروي حكاية

يستنتج المؤلف من تجربة حماس مدى تعقيد الحركات الإسلامية؛ ففي حين تدعو إلى الكفاح المسلح ضد الاحتلال، فإنها تُظهر "موقفاً مُعتدلاً" تجاه العملية الديمقراطية محلياً، مع قمعها للتعديدية السياسية وحفاظها على نظام اجتماعي محافظ وإظهار قدرتها على تبني نهج حدائي وعملي للحكم. كما تُوفّر تجربة حماس بعد سيطرتها على قطاع غزة نظرةً أكثر قرباً لنهجها في الحكم. فبينما ركزت قبضتها على السلطة، أُثيرت مخاوف بشأن رغبتها في فرض نظام اجتماعي محافظ مثل تطبيقها لقوانين الفصل بين الجنسين؛ إذ إنها تهدف إلى إنشاء نظام يُمكن من خلاله أن تتطور الشريعة بشكلٍ عضوي، وبناء هوية تلتف حول المقاومة (ص 239-240). وينبغي الإشارة هنا إلى أن حماس لم تحكم غزة بمعايير الدولة الدينية، إلا أن توجهاتها الدينية واضحة، خصوصاً من خلال تصريحات قياداتها التي أشارت إلى الدولة الإسلامية والخلافة صراحةً، وهو أمرٌ اختلف بعد وصولها إلى الحكم⁽¹⁶⁾.

يؤكد المؤلف على أن فهم الشرعية الواسعة النطاق لحركات مثل حماس أمرٌ ضروري، حيث إنّ العديد من الدوافع السياسية التي تقوم عليها أيديولوجيتها تُشكّل مبادئ أساسية للنضال الفلسطيني من أجل تقرير المصير. وفي حين يبدو أنّ وحشية حرب عام 2014 على غزة تضمنت فترة تهدئة أطول من التصعيد السابق، فإنّ هذا الشأن لا ينفي هُجوماً آخر وشيخاً بوصفه استمراراً لاستراتيجية إسرائيل في "جزء العُشب"؛ إذ إنّ الاحتواء الفعّال لحماس من جانب إسرائيل يعني إلغاءً احتمالية ظهور قرار نهائي من شأنه تلبية المطالب الفلسطينية، وتسهيل إلقائها اللّوم على إرهاب حماس باعتبارها السبب الأساسي للاضطرابات. ويُمكن لحماس من جانبها، تجنّب تقديم تنازلات أيديولوجية إضافية بالقول إنّ إسرائيل نفسها فشلت في قبول الوفاء بالحقوق الفلسطينية أو شرعية حدود 1967. وبهذه الطريقة ستواصل حماس الحفاظ على قوتها، وتواصل إسرائيل استعمارها للضفة الغربية وسيطرتها على قطاع غزة، في حين يواصل الفلسطينيون دفع الثمن الأعلى (ص 247-249).

يرى بقعوني أنّه بات من الصعب على حماس، بعد أكثر من 13 عاماً من إدارتها قطاع غزة، أن تحافظ على الموازنة بين نشاطاتها العسكرية ومسؤولياتها في الحكم، بوصفها لاعباً براغماتياً يتحكّم في التزاماته الأيديولوجية الطويلة المدى ويتعامل مع الوقائع السياسية القصيرة المدى. إنّ ترحيب حماس بمسيرات العودة الكبرى (2018-2019) ومن ثمّ مشاركتها فيها، يظهر سعي الحركة إلى تنويع وسائلها لممارسة

16 سنية الحسيني، "الانقسام وحدود التباين الفكري بين فتح وحماس"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 105 (شتاء 2016)، ص 142.

(ليس منهجياً، بل نظرياً)؛ فهو لم يقدم تعريفاً لحماس من جهة أنها حركة اجتماعية، أو حزب سياسي، أو ميليشيا مسلحة، أو جماعة دون الدولة⁽¹⁹⁾، كما أنه لم يوضح الحقل العلمي الذي يُدرج فيه كتابه. وفي حين راوحت الدراسات في بحثها للحركات الإسلامية بين اقترابات نظرية مختلفة؛ مثل اقتراب الأزمة، والاقتراب الماهوي/ الجوهري، أو اقترابات نظرية الحركات الاجتماعية (اقتراب العملية السياسية، واقتراب بنية الفرص السياسية، واقتراب التأطير الثقافي)⁽²⁰⁾، فإن المؤلف لم يستند إلى أي اقتراب نظري في دراسته لحماس رغم تعقيداتها بوصفها حركة إسلامية في سياق استعماري.

ختاماً، يُعتبر هذا الكتاب، احتواء حماس: صعود مقاومة فلسطينية وركودها، مرجعاً مهماً للتعرف إلى تاريخ حماس، وديناميات صعودها واحتوائها، خاصةً أنه لا يعزلها عن سياقها الفلسطيني الأوسع كما يلاحظ في العديد من الدراسات التي صورت حماس بوصفها حركة دخيلة على الحركة الوطنية الفلسطينية. ولعلّ الكتابة عن حماس، في حدّ ذاتها، مغامرة محفوفة بالعديد من المخاطر، حتى إنه يصعب الابتعاد عن "مطرقة" المبالغة في المدح و"سندان" النقد الأيديولوجي المتطرف، حيث يلحق بالمتعاطف مع الحركة اتهامات بالأصولية ودعم الإرهاب، وبمناقضتها تهم العلمنة والاستشراق ومعارضة المقاومة. يضاف إلى ذلك شحّ الأدبيات التي بحثت هذه التجربة الفريدة، في السياق الفلسطيني، وسياق الحركات الإسلامية بشكلٍ عام.

الحركة الوطنية الفلسطينية من جهة، ويشرح تطوّرات الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، والانقسام الفلسطيني - الفلسطيني بين السلطة الفلسطينية وحماس من جهةٍ أخرى. ويعزو المؤلف ذلك إلى فترة السبعينيات من القرن الماضي، وليس إلى أحداث الاقتتال الفلسطيني عام 2007.

وتمتاز مساهمة المؤلف بتحرّرها من الحملات الأيديولوجية، بل إنه كان محايداً إلى حدّ بعيد. فمثلاً، يدين المؤلف استهداف المدنيين من كلا الجانبين؛ الفلسطيني والإسرائيلي (ص x-xii). كما أنه ينتقد محاولات إخضاع السياق الفلسطيني لمفاهيم لا تنطبق عليه موضوعية، مثل الإرهاب والحرب والسلام والعنف. ومن خلال ذلك يشير إلى أن استخدام العنف في النضال الفلسطيني المسلح يُدان في كثير من الأحيان، مع تناسي أن العنف أثار العديد من مسارات التحرر المناهضة للاستعمار، وإغفال السياق التاريخي الذي أدّى إلى ظهور حماس بوصفها حركة مقاومة مسلحة (ص x, xv, xviii-xix).

لقد نجح المؤلف في توصيف وتحليل قرارات الحركة التي اتخذتها للتكيف مع تطوّرات علاقتها بالسلطة الوطنية وصراعها مع إسرائيل، من دون أن يسقط في الانحياز الذي قد يقع فيه من يستند إلى المصادر الأولية لفاعل واحد من دون باقي الفاعلين؛ فهو قد تفادى، موضوعية، تحوّل مؤلفه إلى انعكاس لصوت الحركة كما تريد أن تُقدّم نفسها. كما يُشاد في ذلك، بالعمل الميداني الذي قام به المؤلف، ورجوعه إلى كمّ كبير من المصادر ووثائق الحركة التي تجعل الكتاب شاملاً، وقادراً على المقارنة بين خطاب الحركة وممارساتها. إلا أن منهج تحليل الخطاب رغم إتاحتها التعرف إلى سرديّة الفاعل، كما يرويه المؤلف نفسه، ينطوي على جوانب من القصور يُحدّد منها المؤلف عدم سماحه بقياس علمي لواقع حماس⁽¹⁸⁾، ثم إنّه لا يُمكن من فهم كيفية تشكّل هوية حماس، وأنماط التعبئة والتشديد التي تتبعها الحركة، والاقتصاد السياسي للحركة ومصادر تمويلها، إضافةً إلى إغفال الجانب السوسيولوجي للحركة؛ فالكتاب يُقدم قراءة في كيفية صعود حماس في غزّة، لكن ماذا عن بنية حماس الداخلية وقاعدتها؟ وما هي البنية الرأسيّة لحماس؟ إنّ بنية حماس تُشبه إلى حدّ بعيد بنية تنظيم الإخوان المسلمين، حيث تتسلسل قياداتها من المكتب السياسي وجهاز الدعوة والذراع العسكرية حتّى الشعبة والأسرة.

أما الإشكالية الرئيسية في كتاب المؤلف، فهي تتمثّل في غياب المعالجة النظرية أو المفاهيمية، حيث لم يحدّد المؤلف طريقة دراسته لحماس

19 على سبيل المثال، يُعرّف صعود المولى حماس بأنها حركة جهادية بالمعنى الواسع للجهاد بحسب أيديولوجيا مؤسسها، ومن جهةٍ أخرى هي حركة شعبية تُعبّر عملياً عن تيار فلسطيني شعبي واسع. يُنظر: المولى، "المقاومة الإسلامية في فلسطين"، ص 57.

20 خليل العناني، داخل "الإخوان المسلمين": الدين والهوية والسياسة، ترجمة عبد الرحمن عياش، مراجعة عومرية سلطاني (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2018)، ص 41-56.

18 طارق بقعوني، "تخندق حماس في غزّة"، في: قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني، الجزء الأول: في الهوية والمقاومة والقانون الدولي (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 517.

المراجع

العربية

قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني، الجزء الأول: في الهوية والمقاومة والقانون الدولي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

محمد محسن صالح (محرر). حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014.

محمود، خالد، وآيات حمدان. "حماس ومصر: المأزق ومآلات العلاقة". سياسات عربية. العدد 7 (2014).

مشعال، شأؤل، وأبراهام سيلع. أزمة المشروع الوطني الفلسطيني من فتح إلى حماس. قراءة وتعليق علي بدوان. دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، 2009.

المولى، سعود. "المقاومة الإسلامية في فلسطين: التباسات البدايات، واقعية المسارات". مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 95 (صيف 2013).

_____ . من فتح إلى حماس: البدايات الإخوانية والنهايات الوطنية. بيروت: دار سائر المشرق للنشر والتوزيع، 2018.

النواقي، مهيب سليمان أحمد. حماس من الداخل. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002.

نوفل، أحمد سعيد، وآخرون. حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014.

الأجنبية

Hroub, Khaled. *Hamas: Political Thought and Practice*. Washington D.C: Institute for Palestine Studies, 2000.

Jensen, Michael Irving. *The Political Ideology of Hamas: A Grassroots Perspective*. London: I.B. Tauris, 2009.

Nusse, Andrea. *Muslim Palestine: The Ideology of Hamas*. London: Routledge Curzon, 1998.

Tamimi, Azzam. *Hamas: Unwritten Chapters*. London: C. Hurst & Co., 2009.

Yousef, Mosab Hassan. *Son of Hamas: A Gripping Account of Terror, Betrayal, Political Intrigue, and Unthinkable Choices*. Illinois: Tyndale Momentum, 2010.

أبو عامر، عدنان. الحركة الإسلامية في قطاع غزة: بين الدعوة والسياسة. القاهرة: مركز الإعلام العربي، 2006.

أبو عمرو، زياد. أصول الحركات السياسية في قطاع غزة: 1948-1967. عكا: دار الأسوار، 1987.

أبو مرزوق، موسى. مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال. ط 2. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2019.

إشنيور، رائد. التقارب بين حماس وإيران بين الضرورة والخيار. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2014.

بلقزيز، عبد الإله. أزمة المشروع الوطني الفلسطيني: من "فتح" إلى "حماس". بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006.

الحسيني، سنية. "الانقسام وحدود التباين الفكري بين فتح وحماس". مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد 105 (شتاء 2016).

حنيني، عبد الحكيم. منهجية حركة حماس في العلاقات الخارجية: سورية نموذجًا 2000-2015. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018.

الزعنون، سليم محمد. سياسة الاتحاد الأوروبي تجاه الحركات الإسلامية في المنطقة العربية: دراسة حالة حركة المقاومة الإسلامية (حماس): 2001-2007. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.

شهاب، زكي. حماس من الداخل: القصة غير المرئية عن المقاومين والشهداء والجواسيس. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008.

صدّقي، العربي. إعادة التفكير في الديمقراطية العربية: انتخابات بدون ديمقراطية. ترجمة محمد شيأ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010.

صلاح، عقل. حركة حماس وممارستها السياسية والديمقراطية: 1992-2012. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2016.

العناني، خليل. داخل "الإخوان المسلمين": الدين والهوية والسياسة. ترجمة عبد الرحمن عياش. مراجعة عومرية سلطاني. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2018.

الغبر، شفيق. النكبة ونشوء الشتات الفلسطيني في الكويت. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

غوشة، إبراهيم. المغنذة الحمراء: سيرة ذاتية. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2008.